في نقد ثقافة العولمة

د/ آمال علاوشيش
جامعة الجزائر2

الملخص:

تعد العولمة ظاهرة خطيرة اجتاحت الكوكب بأسره فكان لها أثر على واقع الجميع، حيث أضحت سلبياتها الكثيرة معروفة وذلك من قبيل ظاهرة التلوث الناجم عن التصنيع، والجريمة المنظمة، وتنميط العالم، والسيطرة والاستلاب.. لقد ولدت العولمة ثقافة قلق وهيمنة، وعنف وحرب ولكن أيضاً ثقافة تشيء واستهلاكٍ مفرطٍ ، فكانت التربية هي المستهدف الأول إلى جانب تلاشي مفهوم سيادة الدولة القومية.

Résumé

La mondialisation est un phénomène à risque qui a envahi la planète entière et a eu un impact sur le quotidien de tous, es multiples inconvénients sont aujourd'hui très connus tels que la pollution accrue de l'environnement due à l'industrialisation des pays en développement et des pays émergents, le crime organisé, la standardisation du monde, la domination et l'aliénation.. Elle a notamment engendré une culture de malaise et d'hégémonie, de violence et de guerre mais aussi de réification et de consommation extrême. L'éducation fut le premier objet visé et la souveraineté de l'Etat-Nation est révolue.

مقدّمة:

في ظل واقعٍ الْتحم فيه الفضاء الخاصّ مع الفضاء العامّ وتلاشت فيه الخصوصيّة المحلّية والقوميّة، صار من اللاّزم على المجتمعات المتخلّفة أوالنّامية والمتوسطية أن تدق ناقوس الخطر نظراً لحدّة التّهديد الّذي يتربّص بكينونتها

وبهويّتها الّتي تعدّ المقوّم الأساسيّ لوجودها في ظلّ تيّار الكوكبيّة أو العولمة الّذي يزداد انتشاراً وشدّةً يوماً بعد يوم.

هذه المسألة الّتي نبّه إليها الكثير من فلاسفة الغرب ومفكّري العرب على حدّ سواء برغم اختلاف الأسباب والرؤى والهواجس. ففي الوقت الّذي نتقبل فيه اجتياح العولمة لنا نقف منها في الآن نفسه موقف ريبةٍ وتوجّسٍ، ولكنّنا برغم ذلك نزلق في تيّارها بلا حولٍ لنا ولا قوّة والسّبب في ذلك إنّما يعُود إلى عديد الأسباب، والّتي من ضمنها وقوفنا على هامش التّاريخ وانكفائنا على الماضي المتعب والمجهد بأخطائه وسيّئاته دُون أن نعمل على غربلة محتواه لانتقاء ما يمكن أن نبعث فيه الحياة من جديدٍ، وهو الجزء الّذي يشكّل هويّتنا الفعليّة والثّابتة، وكذلك غيرها من الأسباب الّتي سنحاول الوقوف عندها في هذه الورقة،ولعلّ أهمّها الاختراق الثّقافي الّتي ابتُلينا به تحت غطاء التحضّر والتّثاقف (interculturalité) الحداثة (modernité).

في هذا السّياق، فإنّ الحديث عن الثّقافة في زمن العولمة في نظرنا ذو اتّجاهٍ واحدٍ لأنّ هذه الظّاهرة آلتي تحاول تنميط العالم (lastandardisationdumonde) وإلغاء الخصوصيّة الثّقافية إنّما تعكس في الواقع ثقافة القوّة، وهي سياسة الهيمنة الّتي تفرضها الدّول الأقوى، ولن نكون مبالغين إذا قلنا الولايات المتّحدة الأمريكية، لكن قبل أن نغُوص في هذا الطّرح، علينا أن نضبط أهّم المفاهيم الّتي يدور حولها هذا البحث وهي: الثقافة(CULTURE)والعولمة(Globalization/mondialisation) لأنّ الحكم على الشّيء فرع من تصوّره.

1-في مفهوم (العولمة/التربية)،وتجلّياتها:

العولمة هي ترجمة للكلمة الإنجليزية (Globalisation) والّتي برغم شيوع استعمالها لا تزال من الألفاظ الّتي يكتنفها الغموض، وهي تعني جعل الشّيء على مستوى عالميّ أي نقله من المحدود المراقب إلى اللاّمحدود الّذي ينأى عن كلّ

مراقبةٍ، أو هي تعميم الشّيء وتوسيع دائرته ليشمل الكلّ[1]، والمقصود بالمحدود هنا هو الدّولة القوميّة ذات الحدود الجغرافيّة الصّارمة، بينما اللاّمحدود فهو العالَم أو الكرة الأرضيّة، وبالتّالي فهي تفترض إلغاء الحدود الوطنية، وهو الأمر الّذي يجرّنا إلى طرح جملةٍ من التّساؤلات من قبيل: ألا يهدّد مثل هذا الوضع بتفكيك وحدة التّراب الوطني لأيّ دولةٍ؟ ألن يتزعزع الاستقلال السّياسي لأيّ مجتمعٍ عندما تفقد حكومته قدرتها على أخذ زمام المبادرة في توحيد اقتصاده؟ هل سيُسفر المستقبل عن دولةٍ أو حكومةٍ عالميّةٍ يكُون بوسعها تنظيم دول العالم سياسياً؟وما أثر كلّ ذلك على هويّة الشّعوب وثقافاتها المحلّية وبالتّالي كينونتها، تراثها وأصالتها؟

لقد انتقل مفهوم العولمة من التّجارة والمال والاقتصاد كما يقول الجابري ليصبح نظاماً أو نسقاً ذا أبعادٍ تتجاوز دائرة الاقتصاد، وأضحت نظاماً عالمياً يشمل مجال المال والتّسويق والاتّصالات كما يشمل مجال السّياسة والفكر والإيديولوجيا[2]، أي أنّ العولمة قتلت المسافة وألغتها كما يشير إلى ذلك ألريش بك[3]، وصارت الكرة الأرضيّة صغيرةً وقريبةً عن طريق شبكة الاتّصالات في ميادين الأسواق، كما صارت تعني من ضمن ما تعنيه انهيار وحدة الدّولة الوطنية والمجتمع الوطني، ويستدلّ بدافيدهيلد في كتابه: **الدّيمقراطية، الدّولة الوطنية والنّظام العالميّ الشّامل**، ليبيّن أنّ المفهوم السّياسي للسّيادة قد أصبح مفهوماً كلاسيكياً في ظلّ إفرازات العولمة.

---

[1]- محمد عابد الجابري، **قضايا الفكر المعاصر**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،1997، ص136.

[2]- **العرب والعولمة**، بحوث ومناقشات النّدوة الفكريّة الّتي نظّمها مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت،1997)، ط1، ص136.

[3]- أولريش بك،**فخ العولمة**،ت:أبو العيد دودو،منشورات الجمل،1999،ط1،ص ص 62،63.

إذن فلقد تجاوزت هذه الظّاهرة - العولمة – دائرة التّجارة والحواجز الجمركيّة أي دائرة الاقتصاد، والإمبرياليّة الجديدة الّتي أفرزتها مرحلة ما بعد الكولونيالية دليلٌ بارزٌ على ذلك، وهي كما هو جليّ سياسة قديمةٌ اتّخذها الغرب (المستعمِر، الآخر..) ليفرض هيمنته وثقافته، بدءاً من فرض النّظام الرّأسمالي أو الاقتصاد الحرّ بعد سقوط جدار برلين وانهيار الاتّحاد السّوفياتي إبّان الحرب الباردة، إذ من حينها اتّخذت العولمة صبغةً أمريكيةً محضة. إنّها عولمة القيم والأخلاق وأساليب العيش وأنماط التّفكير، وهي بعامّةٍ عوامل تندرج ضمن الخصوصيّات الثّقافية وتشكّل تهديداً للهويّة بشكلٍ مباشرٍ.

وعليه – وتعزيزاً لما تقدّم- كانت العولمة تعني كما يقول طه عبدالرحمان" تعقيل العالم بما يجعله يتحوّل إلى مجالٍ من العلاقات بين المجتمعات والأفراد عن طريق تحقيق سيطرات ثلاث: سيطرة الاقتصاد في حقل التّنمية، وسيطرة التّقنية في حقل العلم، وسيطرة الشّبكة في حقل الاتّصال "[4]، ومعنى هذا أنّها وإن ظهرت في مجال الاقتصاد فإنّها اتّسعت لتشمل كلّ قطاعات الحياة ومجالاتها، حيث أخذت تجلّيات سياسيّةٍ واجتماعيّةٍ وإعلاميّةٍ ولغويّةٍ وتربويّةٍ وثقافيّة.

أمّا الثّقافة(culture)،فهي كما يعرّفها مالكبنبي(1905ـ1973) " مجموعة من الصّفات والقيم الّتي تؤثّر في الفرد منذ ولادته وتصبح لاشعورياً العلاقة الّتي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الّذي ولد فيه "[5]، أي هي المحيط الّذي يتحرّك الإنسان في نطاقه وحدوده، ولهذا تكون عبارة عن نتيجة التّفاعل بين الفرد وبيئته كما عند الأمريكي جون ديوي(1859-1952)، أو هي طراز التّفكير والعمل معاً باعتبارها تهدف إلى تحقيق الملاءمة مع المحيط الطبيعيّ والاجتماعيّ حيث يكون

[4]– طه عبد الرحمان، **روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية**، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2006)، ط1، ص78.

[5]– مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، ت:عبد الصّبور شاهين، دمشق: دار الفكر،1984، ط4، ص74.

العقل وسيلة، لأنّه حيثما افتقد التّطبيق قُضي عليه بالعزلة في عالمٍ منفصلٍ، بخاصّةٍ وأنّ الاضطرار هو الّذي يدفع الإنسان إلى العمل الحضاريّ المُنتج والخلاّق، فما نتوارثه عن السّلف هو في نظر ديوي جزءٌ من الثّقافة وثمرة نحتفظ بها شريطة أن نعيد تشكيل واقعنا على الدّوام، وكلّما شاركت الطّبيعة البشريّة في نشاطٍ خلاّقٍ أثّرت به المحيط من حولها ازدادت سروراً بقدْر ما يكُون العمل المنجز إنسانياً، والمعنى أنّ الثّقافة إنّما تكتسي طابعاً عملياً، هذا المحيط الّذي راح في ظلّ ظاهرة العولمة يكتسي بعداً عالميّاً أو كونيّاً.

في هذا السّياق وبحسب إحدى أطروحات الجابري، لا توجد هناك ثقافة عالمية واحدة – كما تحاول العولمة الادّعاء وإن بشكلٍ غير مباشرٍ- بل هناك ثقافات، على اعتبار أنّ الثّقافة بالنّسبة إليه إنّما هي ذلك المركّب المتجانس من الذّكريات والتّصورات والقيم والرّموز والتّعبيرات والإبداعات والتّطلعات الّتي تحتفظ لجماعةٍ بشريّةٍ بهويّتها الحضاريّة، إلى جانب قابليتها للتّواصل والعطاء[6]، وهو ما يصبّ على ما نعتقد في مفهوم التّثاقف وإلحاحيته.

2- العولمة الثقافية:

بناءً على ما تقدّم تتشكّل الثّقافة إذن من ذلك التّفاعل بين الفرد وبيئته، وبما أنّ الواقع المحلّي للمجتمعات أصبح عولمياً، فقد أضحت بدورها ثقافةً تكتسي بعداً كونياَ تجاوز بل وتخلّى عن البعد القومي الضيّق مخترقاً كلّ الحدُود، باعتبار أنّ الانفتاح على الآخر شرطاً ضرورياً للّحاق به وهو ما يجرّ لا محالة إلى إثارة قضيّة الأصالة والمعاصرة، الّتي تقتضي منّا الوعي بما يزخر به الماضي واستحضاره في الواقع المعيش للاستفادة منه دون التّقوقع، وكذلك الاعتراف بما أنجزه الآخر الّذي قطع معرفياً مع ماضيه المكبّل، بتحرّره من الانتمائية الضّيقة وتجاوز التّقاليد المكبّلة، وهي تجربة ينبغي علينا الاستفادة منها.

---

[6]- **العرب والعولمة**، مرجع سابق، ص ص(297-300).

وما نقصده هو أنّ التمسّك بالماضي لا يعني الحفاظ على الهويّة بدعوى مضاهاة عرب الأمس من جهة، أو التميّز عن الغرب من جهةٍ أخرى، وبالتّالي العودة اللاّمشروطة له بخاصّةٍ ونحن نعيش عصر انحطاطٍ مقارنة بالماضي، بقدر ما نعني الوعي به لاستحضاره في الواقع المعيش ليكون المرآة الّتي على ضوئها نرى ما يستجدّ من وقائع لأنّ التغيّر هو سنّة الطّبيعة والكون، وحينها فقط تصبح الأصالة مرادفة للمعاصرة لأنّها تتحوّل إلى حاضرٍ نحياه بإيجابياته، في الوقت نفسه يمنح المعاصرة جذورا تاريخيّة تحفظ كياننا ومقوّماتنا أي شخصيتنا من الانحلال والذّوبان، وبالتالي لا تقوم على عملية الاستبدال الّتي تستند إلى مناهج الغرب وكفاءاته وخبراته، الأمر الّذي لن يتحقّق إلاّ إذا تجسّد بوصفه عقيدةً في سلوكياتنا، فيُحوّل إيماننا الميّت إلى إيمانٍ حيّ يفعل فعله في مقتضيات العصر لنتمكّن من توجيه أحداثه.

ولكن في الآن نفسه ينبغي لنا أن نعترف أنّ الغرب المتطوّر استطاع أن يتخلّص من نظامه الأسطوري للفهم بدءا من اللّحظة الدّيكارتية الأولى وعبر المرحلة الإيديولوجيّة ليصل إلى المرحلة الإبستيمولوجيّة، فاصطدم بالعقيدة المسيحيّة وتخلّص من طغيان اللاّهوت، كما تحرّر من السكولائية أو الفلسفة الأرسطية مع بطليموسPtolemy(90م-168م) وكوبرنيكوسCopernic(1473-1543) وغاليليGalileo(1564-1642) أيضاً، مُحدثا بذلك قطيعةً (rupture) مع الماضي المتكلّس جاهداً ومجتهداً بلغة ميشال فوكو(1926-1984) في حفر الأعماق بشكلٍ أركيولوجي حتّى يخرج إلى سطحٍ أكثر صلابة وإشراقاً، وهي تجربة على ما نعتقد ينبغي أن نتعلّم منها الكثير بفعل المتغيّرات الجديدة الّتي تنهال علينا وتجرفنا يومياً، والمعنى أنّه – الغرب – استطاع أن يحرّر أناه وجعل بالتّالي من إنّيته فاعلاً حقيقياً على مستوى الذّات والمجتمع.

عن هذه الغاية تعمل العولمة الثّقافية جاهدةً على صرفنا بكلّ بما أُوتيت من وسائل دعائيّةٍ وإعلاميّةٍ ضخمةٍ تقُوم باتنهاك المحضورات على مرأى ومسمع منّا، وذلك من خلال ما تُصدّره لنا من قيم العنف والجنس والإباحيّة، جاعلة كلّ

شاذٍ وغريبٍ يبدو وكأنّه شيئاً مألوفاً لنا، وهي قيمٌ وافدةٌ صار كثيرٌ من شبابنا يتبنّونها بطريقةٍ لاشعوريّةٍ لأنّها تصل إليهم بالمجّان وبطرقٍ وتقنياتٍ مدروسةٍ تؤهّلهم للتلقّي والاستجابة، فتجعلهم يُعيدون تشكيل معتقداتهم بل ويتحوّلون إلى ناشرين لتلك القيم في مجتمعاتهم، وتحوّلت قيمهم ومعتقداتهم السّابقة إلى عبثٍ لا طائل من وراء، ولا أثر للرّقابة على هذه المادّة ما دامت تُعتبر ثقافة، والأمثلة على ما نقول كثيرةٌ جداً منها ستار أكاديمي والمسلسلات المكسيكية المدبلجة والّتي أصبحت اليوم تركيّة وكذلك بالنّسبة للعلاقات الاجتماعيّة المشبوهة الّتي تنشأ عبر الشّبكة العنكبوتيّة، الأمر الّذي جعل مرونة التكيّف واقعاً ضروريّا في كلّ مرة يرتدّ إلينا فيها سلوكنا العملي بنتائج ليست هي الّتي أردناها، هذه المآسي راحت تمسّ حتّى الأمّهات وهنّ قارّات في بيوتهنّ.

بهذه الكيفيات والاستراتيجيات المدروسة والخطيرة وغيرها، أضحت العولمة واقعاً مريباً يهدّد هوية ومستقبل أجيالنا، بخاصّةٍ إذا علمنا أنّ العولمة الثّقافية تحمل بعداً استدمارياً قائماً على مفهوم الهيمنة والتّبعية ولا تعترف بأيّ شكلٍ من أشكال المساواة أو النّدية، فهي تستغلّ خيرات الدول باسم الاستثمار، وتستوطن الدول تحت شعار نشر الديمقراطية والقضاء على الاستبداد، وتثير القلائل والفتن بين الشعوب تحت غطاء نبذ العرقية والطائفية وكل شكلٍ يحُول دون تحقيق مفهوم المواطنة الكونية الزّائفة، كما تشوّه القيم والمعتقدات بما حققته من ثورةٍ رقميّة بلغت أوجّ التّطور، والّتي راحت تبثّ من خلالها سمومها باسم توعية الرأي العام العالميّ وتعميم المعرفة، وقد نجحت في تقسيم العالم لا إلى شرقٍ وغربٍ كما كان الحال عليه من قبل، إنّما إلى عالمين آخرين: شمالٌ متقدّم ينعم بكلّ شيء ومن حقّه كل شيء باعتباره يمثّل المركز، وجنوبٌ مغلوبٌ على أمره محرومٌ من كلّ شيء يمثّل الهامش، إلى جانب ما تروّج له منذ عشرات السّنين عبر مقولة صراع الحضارات.

هذا، ولعلّ من أهمّ أخطار ثقافة العولمة– ومن خلال تجلّياتها- ما يلي:

أ-العولمة: ثقافة هيمنة واستلاب.

لقد تمكّنت العالميّة والعولمة على حدّ سواء – رغم إيجابيات الأولى باعتبارها إغناء للهويّة - بالفعل من أن تشوّه معالم الهويّة الحضاريّة للشّعوب الضّعيفة المستهلِكة والمستهلَكة الّتي ترضى بفتات ما تجُود به موائد الغرب عليها، في الوقت الّذي يعمل فيه الغرب وأوروبّا على استغلال خيراتها وثرواتها الطّبيعية، ولم يكتف بهذا إنّما جعل مسخ هويتها وشخصيتها مهمّة أخرى تنضاف إلى مهامّه التّشويهية ولعلّ كلّ مظاهر ما بعد الكولونيالية تشهد على ذلك، وذلك على جميع الصّعد فكراً واقتصاداً وسياسةً...،وفي هذا السّياق تصبّ أطروحة الجابري عندما رأى أنّ العولمة هي إيديولوجيا تعكس إرادة الهيمنة على العالَم، بخاصّةٍ عندما تجاوزت دائرة الاقتصاد[7]، حيث تمكّن طوفان الشّمولية من أن يجرف الشّعوب النّامية المهمّشة والضّعيفة والمستلَبة ويُوهمها بأّنّ تيّاره لا يؤثّر على القيم والثّقافات المحلّية، وهو الوضع الّذي تجسّدت معالمه في سيطرة سكّان نصف الكرة الأرضيّة على نصفها الجنوبي كما أشرنا إلى ذلك، وإحراز الوصاية عليه لقرونٍ عديدةٍ بخاصّةٍ بعد انهيار الكتلة الشّيوعية والمنظُومة الاشتراكيّة عبر إفلاس أنظمتها السّياسية لصالح رأسماليّةٍ غربيّةٍ مغرُورةٍ عزّز وضعها تراجُع الحركات التّحررية عبر العالَم، حيث تمكّنت من خلال تكتّلاتها الاقتصاديّة وأسواقها المفتوحة وهياكلها كصندوق النّقد الدّولي والمنظّمة العالميّة للتّجارة (OMC)،من تذويب الحدود الإقليميّة بين الدّول بواسطة نموذجها الاتّصالي التّكنولوجي ذو التفوّق البالغ، وبلغة بريجنسكي (1928) تمكّنت من إحراز ثورةٍ تكنوإلكترونيّةٍ ذات قوةٍ ناعمةٍ، وبالّتالي تحقيق السّيادة الحتميّة والسّيطرة بلا حروبٍ عسكريّةٍ، وبالتّالي فإنّ الخطاب ما بعد الكولونيالي إنّما عرف في فترة الحداثة ومابعد الحداثة أشكالاً وتجلّياتٍ وأساليب تعدّدت وارتقت بارتقاءالصّناعة والتّكنولوجيا.

[7]- **العرب والعولمة**، مرجع سابق، ص300.

ومنه ينبغي لمجتمعاتنا أن تتحرّر من الوصاية السّياسية والاقتصاديّة الّتي يمارسها الغرب عليها، والّتي اتّخذت لها عديد الصّور والأشكال تبدّت في مختلف ما تستورده وفي عقدة الانبهار الّتي تسكنها، وكذلك في الاقتباسات الّتي تقيُوم بها على المستوى العقلي والمعرفي بخاصّةٍ وأنّ الغرب درس وعي شعوبها وحلّله وأوْهمها أنّ وجودها واستمرارها فيه رهنٌ بما يملكه من تكنولوجيا وحضارةٍ راقيةٍ أهّلته لأن يكُون مالكاً للحقيقة دون سواه، وانتهاج هذه السّياسة إنّما يدخل في إطار المشروع الشّمولي للهيمنة وتكريس المركزيّة الغربية من خلال إفراد ملامح الأوج والقدرة والاستئثار بها وادّعاء أنّه يحمل رسالةتحضيريّة (missioncivilisatrice)، وذلك في مقابل تهميش الآخر وإقصائه وتوصيفه بالدّونية الحضاريّة والتخلّف وشتّى النّعوت المبتذلة، وهو ما ساهمت الصّحافة الغربيّة في تكرسيه باعتبارها صحافة إقصائية بسبب معاناتها كما يقول إدوارد سعيد من رهاب الغرباء[8].

ب-العولمة: ثقافة مسخ وتشويه.

من بين أبرز أطروحات الجابري أيضاً، أنّ العولمة بوصفها نظاماً تعمل على إفراغ الهوية الجماعيّة من كلّ محتوى، لتدفع إلى التّشتيت والتّفتيت، وتربط النّاس بعالم اللاّوطن واللاّدولة[9]، أي أنّها تعمل على تحقيق فقدان الشّعور بالانتماء إلى وطنٍ أو أمّةٍ، وإفراز بديلٍ هو الانتماء إلى عالمٍ من المؤسّسات والشّبكات، وقد نجحت في هذا المسعى إلى حدّ بعيدٍ، وفي هذ السّياق ينبغي التّمييز بينها وبين العالمية فهي تعبّر عن نفيٍ للآخر[10]، والمعنى أنّ العولمة عبّرت منذ البدء عن نزعة هيمنةٍ وسيطرةٍ ورغبةٍ جامحةٍ في تنصيب وتكريس خصوصيّةٍ معيّنةٍ

---

[8]- إدوارد سعيد، **السلطة والسياسة والثقافة**، حوارات مع إدوارد سعيد، إعداد وتقديم: غاوري فسواناثان، ترجمة: نائلة قلقيلي حجازي، بيروت: دار الآداب،2008)، ط1، ص 420.

[9]- **العرب والعولمة**، مرجع سابق، ص303.

[10]- المرجع نفسه، ص301.

وتوصيفها بالأنموذج العالميّ الّذي ينبغي الاقتداء به، وهو الوضع الّذي يؤدّي لا محالة إلى إقصاء الهويّات الأخرى الفرديّة والجماعيّة على حدّ سواء، وممّا لا شكّ فيه أنّ القويّ والمميّز والأرقى هو الّذي سيضطلع بهكذا مهمّة.

ومنه فإنّه وفي ظلّ هذا المسعى الّذي بات هاجساً تخشاه الثّقافات المحلّية أضحى التّثاقف أو التّلاقح الحضاريّ والتّنوع الثّقافي يبدُو مطلباً طُوباوياً، والدّليل ما قامت به أمريكا ولا زالت، حيث فرضت بكلّ ما أوتيت من قوّة تهميش الخصوصّيات وتكريس " الكونيّ " الّذي تفرزه هي، وذلك طبعاً من منطلقٍ تراتبيّ أو تفاضليّ في النّظر إلى الشّعوب والثّقافات. وفي هذا السّياق، فإنّ اكتمال الذّات الفرديّة لا يتحقّق بالنّسبة إلى تشارل تايلور إلاّ عن طريق الحوار(ledialogue)، حوارٌ مفتوحٌ مع الآخر الّذي وحده يسمح باكتشاف الهويّة، والحاجة الملحّة في عالمنا المُعاصر اليوم هي إرضاء هذه الرّغبة في اعتراف الآخر بنا[11].

هذا، ويضيف الجابري في أطروحاته أنّ العولمة تكرّس الثّنائية والانشطار في الهويّة الثّقافية العربية[12]، لتبرز حالةً من التمزّق بخاصّةٍ وأنّ المرحلة الّتي أعقبت رحيل الاستعمار عملت على طرح إشكالياتٍ جوهريةٍ تناولتها نظريات ما بعد الكولونيالية، مثل علاقة الأنا بالآخر والمركز بالهامش، وكذلك الشرق بالغرب. والمطلُوب هو أن يتمّ الاعتراف بحقّ الاختلاف والتّمايز حتّى تتجنّب الثّقافات الوقوع في فخّ التكلّس باسم الحفاظ على الهويّة والخصوصيّة المحلّية، وفي الوقت ذاته تنفتح على العالميّة، والمعنى هو تبنّي ثقافة الاختلاف والمغايرة والتّباين الّتي تقُوم على جسور الحوار المؤسّس والعادل، وليس من منطلق ثنائية (غالب- مغلوب).

في هذا السّياق فإنّ تجديد الثّقافة رهنٌ بإعادة بنائها من الدّاخل مع الأخذ في الاعتبار معطيات الحداثة من عقلانيةٍ وديمقراطيةٍ، في الوقت الّذي ينبغي أن

---

[11]- Charl Taylor. **le malaise de la modernité** .Trad : Charlotte Melançon, (Paris :Editions du Cerf,1994),p56.

[12]– **العرب والعولمة**، مرجع سابق، ص304.

نحرص فيه على تجنّب التطرّف في الانغلاق أو القبول بالعولمة على حدّ سواء،علماً أنّ الحداثة الغربيّة إنّما انطلقت من شعاراتٍ عبّرت في حقيقة الأمر عن محض ادّعاءاتٍ كاذبةٍ، فمبدأ المساواة الّذي انبعثت منه في دعواها للعالميّة عرف خرُوقاتٍ على مستوى الممارسة وهو ما يتجلّى بوضوحٍ في التّمييز بين الشّرق والغرب وبلدان الشّمال والجنوب–كما تقدّم- ، أو بتعبيرٍ آخر بين دول المركز والمستوطنات، بين شعوب مقهورةٍ وأخرى منتجة، وهو الوضع الّذي أفرز واقعاً إقصائياً عمل على ترسيخ الهوّة بين الطّرفين، ولعلّ في الثّورات المجهضة الّتي عرفتها بعض المجتمعات من دول الجنوب دليلٌ بارزٌ على تدخّل الشّمال بإيديولوجيته فيها وبشكلٍ غير مباشرٍ، والمعنى أنّ المطلوب ليس التخلّص من الفكر الأوروبيّ لأنّه متفوّق، إنّما الضّروري والملحّ هو التّحرر من ظلاميته الإمبرياليّة لتوظيفه فيما يعُود بالنّفع على المجتمعات المقهورة بشتّى الطّرق والأساليب، وأن ننتبه إلى أنّ الخطاب الاستشراقي الغربيّ كما ينوّه إدواردسعيد إنّما يتبجّح بالتوصيف الرّشيد للحضارة الغربيّة بالدّيمقراطية والعدالة لإضفاء الشّرعية على الإمبريالية في حين يصف الشّرق بالبذاءة والهمجيّة والاستبداد، وإن كنّا نعتقد أن الواقع المعاصر قد تحرّر من الكولونياليّة التّقليدية فإنّنا في واقع الأمر نلاحظ تناقضاً نظرياً وعملياً مع الواقع الدّولي الرّاهن الّذي لا زالت تسوده الهيمنة واستباحة الأراضي والأعراض وضرب المعتقدات والقيم والتّضحية بحقوق الإنسان، ولنا فيما يحصُل في فلسطين وأفغانستان والعراق وعديد المناطق الّتي لا زالت تطالب بحقّ تقرير المصير دليلاً بارزاً.

وفي إطار المسخ والتّشويه الّذي تتعمّده العولمة تحت غطاء التقدّم، ما نلاحظه بجلاءٍ في التّطبيقات الصّارخة للعلم والمشينة في آنٍ واحدٍ، بخاصّةٍ وأنّها تستند إلى التّكنولوجيا الرّقمية الهائلة الّتي أصبحت تجتاحنا في عقر ديارنا ونحن مستسلمون كمثل من خارت قواه وأُنهكت، وذلك عبر ما يبثّ من مسلسلاتٍ وأفلام كرتون وشبكات تواصلٍ اجتماعيّ تبعث فينا قيماً وافدةً غريبةً عن تربتنا ولا تعبّر عن مشكلاتنا إطلاقاً، تقدّم للكبار والصّغار والنّساء دون تمييزٍ، وأصبحنا

بمقتضى ذلك نتخبّط في مشاكل نعجز عن توفير حلولها لأنّها أصلاً ليست مشاكلنا ولا تمتّ بأيّ صلةٍ إلى شخصيتنا وهويّتنا الضّائعة، وذلك بالإضافة إلى ما تفرضه البيوتكنولوجيا من تجاوزاتٍ في حق الكرامة البشرية والجسد الإنساني بحجّة تحسين النّسل أو تخفيف الألم ورفع العذابات.

ج-العولمة: ثقافة تشيّؤ.

تعبّر العولمة عن تجسيدٍ واقعيّ لفلسفة ما بعد الحداثة (postmodernité) الّتي قامت على تشجيع النّمط الاستهلاكيّ ومجْتمع المعرفة الغارق في ظلماته وجبروته، حيث تحوّل الفرد إلى عنصرِ مستقبلِ ومستهلكٍ ومنفعلٍ وسلبي، ولعلّ النقد الّذي قدّمه هربرتماركوز(1898-1979) للمجتمع الصّناعي يؤدّي الغرض في هذا السّياق، حيث تمكّن الإنسان فيه من أن يُحقّق السّيطرة على الطّبيعة بفضل العلم والتّكنولوجيا، وعلى الإنسان في آنٍ معاً وذلك بأن حوّله إلى مُجرّد مُستهلكٍ لمنتجاته، وتتنامى احتياجاته باستمرار، وهو الّذي كان في البداية يُناضل من أجل البقاء فقط، وأدّى ارتفاع مستوى حياته عن طريق التّنظيم العلميّ للعمل وتقسيمه وكذلك زيادة إنتاجيّة المشاريع الاقتصاديّة الّتي انعكست لا محالة على المستوى السّياسي والثّقافي، إلى استغلاله بإخضاعه إلى نوعٍ من الرّقابة الاجتماعيّة ذات الطّابع الاضطهاديّ المقنّع، مفرزاً بذلك نوعاً من ثقافة الإجماع الجماهيريّ، ذات البعد العالميّ وبامتياز.

إنّ عالم التّقدم الصّناعي في مجمُوعه حسب ماركوز عمل على خلق مُجتمع قمعٍ وسيطرةٍ عندما قام بقمع المواهب الإنسانيّة وحال دُون تفتّحها الحرّ، حيث يتحكّم جهاز الإنتاج في كلّ شيء على المستوى المادّي والفكريّ على حدّ سواء. إنّه وكما يسمّيه مُجتمع" أُحادي البُعد " (unidimensionnel) صبّ الإنسان داخل قوقعةٍ لا مخرج منها جعلته يعيشُ داخلَ نوعٍ من النّمطية (standartisation)، مُجرّداً إيّاه من خلال ذلك من كلّ رغبةٍ أو طموحٍ في التّغيير أو التحرّر، والحقيقة أنّه بذلك جعله يعيش واقعاً وهمياً مُتصوّراً مع الأسف أنّه الواقع الفعليّ، فحاجاته مُصطنعة اصطناعاً ومفرُوضة عليه فَرضاً بفعل إصرار أساليب الدّعاية

والإعلان الكاذب، اللّذان أوْهمانه من خلال حرّية الاختيار بين ما يستهلكه من البضائع بأنّه حرّ، وكأنّه بذلك أصبح سيّداً بينما هو في واقع الأمر عبد لأسياد جُدُد من طراز حديث.

هذه الحاجات الكاذبة في نظر ماركوز فرضتها مصالح اجتماعيّة خاصّة ومن شأن تلبيتها أن يكُون مصدر يُسرٍ للأفراد إلاّ أنّها إنّما تُحقّق سعادةً أو رفاهاً في الشّقاء[13]، من ذلك مثلاً التّرويح عن النّفس واللّهو والاستهلاك المُفرط حتّى على مُستوى الغريزة.

مثل هذا الوصف على ما نعتقد ينطبق بشكلٍ كبيرٍ جداً على واقعنا اليومي الّذي أفرزته العولمة في سلوكياتنا اليوميّة لدى كبارنا وصغارنا، رجلانا ونسائنا، فصرنا كائناتٍ مستهلكة من الطّراز الرّفيع، تتفنّن في اقتناء آخر صيحات المودة في الطعام واللّباس والمركب والمسكن ووسائل الرّفاه، وهو واقعٌ حسب ماركوز عمل على قمع كلّ فرديةٍ بأن اختصر حرّيتنا في القدرة على الاختيار بين تشكيلةٍ من البضائع[14]،ومن البديهي أنّ من يختار سادته يظلّ عبداً دائماً،هكذا نجحت ظاهرة العولمة في أن تسلب من الفرد أعزّ ما يملك وأن تُحوّله بفضل العقل الأداتيّإلى مجرّد مُستهلكٍ يتعرّف على ذاته من خلال ما يملك، وصار يعيش في ظلّ امتثاليةٍ مُطلقةٍ هي نتيجة لنوعٍ من التّكييف المذهبيّ والأيديولوجيّ الّذي تُمارسه المؤسّسات الاجتماعيّة بمختلف أشكالها.

إنّ العقل الأداتيّ(raison instrumentale) كما يقول تشارل تايلور قدحدّد وضيّق بشكلٍ لا يُستهان به من قدرتنا على الاختيار، وأصبح وسيلةً تهدّد حرّياتنا الفرديّة والجماعيّة على حدّ سواء[15]، فأصبحنا عاجزين عن أن نستبقي لأنفُسنا نظاماً من الحياة خاصّاً لا يكُون نُسخةً جاهزةً، وعاجزين عن تحديد غايةٍ أو هدفٍ نسعى إلى

---

[13]- هربرتماركوز، **الإنسان ذو البعد الواحد**، ترجمة: جورج طرابيشي، (بيروت: دار الآداب،1988)، ط1، ص41.

[14]- المرجع نفسه، ص43.

[15]- Ch.Taylor .**le malaise de la modernité**, p16 .

تحقيقه، وفي هذا السّياق فإنّ المثل الأعلى الّذي تمّ التّنكر له إنّما يُستمد من ثقافتنا المُعاصرة الّتي ليست بخير، إلاّ أنّها تملك أصالةً (authenticité)لا ينبغي تضييعُها برغم ما تحتويه من سلبياتٍ – وهذا ما يصدُق على كلّ ثقافات العالم – ونحن في نظره أحوج ما نكُون إلى بذل جهدٍ يصُبّ في هذا الإطار حتّى يتدفّق هذا المثل من جديدٍ وتعُود إليه الحياة فيسْهم في تقويم وإصلاح توجّهاتنا[16]، وأصالة الثّقافة هنا لا بدّ أن تأخذ بُعداً أساسياً هو الاعترافبالاختلاف(ladifférence) والتّنوع(ladiversité)، وهو ما يعني الاعتراف(lareconnaissance) بالآخر[17].

د-العولمة:ثقافة عنفٍ وحرب.

إنّ العولمة كما نفهمها هي أمركة لأنّها تعكس ثقافة المهيمن اقتصادياً وتكنولوجياً وبالتّالي ثقافياً، وهي تكرّس ثقافة العنف والحرب والتّدمير وذلك ما يتّضح في الميزانيات الضّخمة الّتي تعتمدها الدّول للإنفاق على التّسلح حيث يستمر التّلويح بالحرب، هذه الأخيرة لم تعد تحمل ذلك الشّكل الكلاسيكيّ الّذي يعتمد تواجه الجيوش في ساحات القتال، ونحن في زمن الشّركات العابرة للقارّات أو متعدّدة الجنسيات، وما قد ينجرّ عن ذلك من ضررٍ اقتصاديّ يصيب المعتدِي والمعتدىَ عليه في الوقت نفسه، بخاصّةٍ وأنّ المصلحة الاقتصادّية والتّنافس الماديّ الحادّ لا يتطابق و الحدود الجغرافيّة المعروفة بين الدول، وهو الوضع الّذي يجعل من الرّغبة في التّدمير وفرض السّيطرة والقوّة واقعاً حتمياً، ولكنّها حربٌ ديبلوماسيّة سريعة عملت على اختلاق أعداء جُدد.

إنّها الاستراتيجيّة الّتي تعمل العولمة بمقتضاها، ولهذا وجدت في التّطرف الدّيني - وبخاصّةٍ الإسلاميّ- إرهاباً كما تسمّيه، راحت تعمل على تكريس صورته ووجوده في ذهنية الرّأي العامّ العالميّ لتضلّ الحاجة إلى إنتاج الأسلحة وتطويرها قائمةً وملحّة بدعوى درء الخطر المشترك، أي أنّ الإرهاب اتّخذ وضعاً بديلاً عن العدوّ القديم بل والأدهى أنّه يتواجد في كلّ مكانٍ وهو أخطر لأنّه يتجاوز حدود الدّول ولا

[16]- Ch. Taylor .**le malaise de la modernité**, p31 .
[17]- Ibid, p45.

جنسية له، فيسطو على وسائل الإعلام والأسلحة وشتّى مصادر التّمويل، كما يجد له جهاتٍ تدعمه، ومعنى ذلك أنّه من أهمّ الأسباب الّتي تبرّر الحاجة إلى الاستمرار في إنتاج السّلاح عالمياً بما أنّه يمثّل عدواً زئبقياً مشتركاً، فضلاً عن ذلك أنّه يؤدّي وظيفة اقتصاديةً.إنّها سياسة التّخويف والتّرهيب الّتي تمارسها العولمة، والّتي خلقت في لا وعي الأفراد رهاباً من الآخر المغاير والمختلف

3- العولمة والتّربية:

إنّ الواقع الّذي أفرزته العولمة سبب لنا حالة مسخٍ أو تغريبٍ لثقافتنا المحلّية ما دام المقياس هو الآخر أي الغرب، ومعنى هذا أنّنا مهدّدون في عقر دارنا وفي أغلى ما نملك، والمخرج الوحيد لنا من هذا الحال المزري الّذي آلت إليه ثقافتنا بسبب إخفاقها الداخليّ - ما دمنا شعوباً لا تنتج وإن فعلنا فنحن نُحاكي الآخر الّذي نعتبره قدوةً ومثالاً - هو تجديد الاهتمام بأساليبنا التربويّة واستلهام مناهجها من ثوابتنا الإيمانيّة، ولنبدأ بالإنسان لأنّ الإسلام أولى عنايته له باعتباره خليفة لله على الأرض أمره بتعميرها وترقية الحياة على ظهرها، وهذا يجرّنا إلى الحديث عن إصلاح تربيته وتنشئته الاجتماعيّة ما دام هو الأساس الّذي يعتمد عليه أي تغييرٍ أو بناء.

ولا يعني هذا مطلقاً أن نستكين إلى ماضينا ونعيش في زمانٍ غير زماننا، إنّنا لابدّ من أن نسير نحو تربيةٍ حداثيّةٍ آخذين مزاياها محترسين من رزاياها ككلّ منتوجٍ غربيّ نتعامل معه، وحينها نكون في عمق المسألة االتربويّة وعلاقاتها الإشكالية بالعولمة، والّتي ينبغي النّظر إليها من زاويتين أو بُعدين، من جهة عولمة التّربية(lamondialisation de l'éducation) و من جهة أخرى تربية العولمة(l'éducation de la mondialisation)، ولعلّ المعنى يبدو جلياً لأنّ البُعد الأول إنّما هو تعبيرٌ عن دعوةٍ للانفتاح على الآخر – الغرب – من أجل فهم واستيعاب الاتّجاهات الّتي يدعو إليها بُغية بناء نظامٍ تربويّ متطوّرٍ مرنٍ يمتلك مُقوّمات المُرونة والمنافسة على السّاحة الدوليّة. بينما البُعد الثّاني، فغرضه من جانبٍ أن يحيط بكلّ ما تفرضه هذه الظّاهرة من تحدّياتٍ سياسيّةٍ واقتصاديّةٍ

واجتماعيّةٍ تواجه الأمّة العربيّة، ومن جانبٍ آخر العمل على جعل العولمة خادمة لنا لا سيّدة نأتمر لإفرازاتها دون حراكٍ أو جدل.

في هذا السّياق فإنّ المنهج التّربوي الإسلاميّ وحده كفيلٌ بتزويد أبنائنا وشبابنا أي أجيالنا الصّاعدة بجملة الأسس والقيم الثابتة الّتي توجّه عملهم ونشاطهم، ولا مجال لتحقيق ذلك إلاّ بمعرفة المعايير المرجعيّة الّتي ينبغي العودة إليها والاستئناس بها في هذه الحياة، بخاصّةٍ وأن الشّريعّة الإسلاميّة تخاطب العقل والقوى المُدركة للإنسان، وقد نقلت البشر من مستوى القبليّة إلى مستوى العالميّة، فلم تعد من اعتباراتٍ تميّز بين النّاس سوى العمل الطيّب مصداقاً لقوله تعالى:((إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم)) . الحجرات 13 .

والتصوّر الإسلامي في التربية لم يكرّس في الفرد معنى الأثرة والفرديّة والأنانيّة كما تفعل مبادئ اللّيبرالية والعولمة اليوم بل على العكس تماماً، فهو قد غرس فيه مبادئ الفطرة السّليمة من عدلٍ ومساواةٍ وصدقٍ وإخلاصٍ، وحثّه على الإيثار وروح الجماعيّة(esprit communautaire) والتّكامل والتّواصل والتّراحم والحوار مع الآخر حتّى تُؤتي ثمارها سلاماً و وئاماً، وهي قيم كما نعلم يفتقد إليها واقعنا وبشكلٍ منفّر.

إنّ التّربية في الإسلام منهجٌ يستهدف صياغة الإنسان في كلّيته: عقلاً وروحاً وجسداً ونفساً، حيث جمعت بين تأديب النّفس وتصفية الرّوح وتثقيف العقل وتقوية الجسم، وذلك حّتى يضطلع الإنسان بمهمّة استخلافه في الأرض على أكمل وجه ٍممكنٍ بالعبادة والتّعمير، وهي لذلك تقُوم على اتّباع الأصول والتّعاليم والمبادئ الدّينية الّتي تأخذ بيد الإنسان إلى أعلى مراتب السمّو والرّقي، وبالتّالي فإنّ مرجعيّتها النظريّة والعمليّة هي الدّين. ولأنّ الحياة ازدادت تعقيداً بسبب هبوب رياح العولمة فإنّ العملية التّربوية في ذاتها ازدادت تعقيدا ِهي الأخرى لتصبح عمليةً متشعّبة المشارب تسهر عليها الأسرة والمدرسة والمربّون والمسجد والشارع أي المجتمع بسائر قطاعاته وبخاصّةٍ الإعلام بأفكاره الملوّثة والمسمُومة.

إنّ تحقيق الخلاص رهن بالتّربية الّتي من واجبها أن تنشئ لنا الفرد والمواطن الصّالح الّذي يُحسن التكيّف مع أوضاعه المتغيّرة من غير أن ينسلخ عن جذوره ويفقد الصّلة بمنهج الله ورسوله الكريم صلّى الله عليه وسلّم، فيكُون إسلامه نابعاً من الدّاخل وليس مجرّد طقوسٍ وتلقّياتٍ، وينتفي عنه الشّعور بالسّلبية والعجز الّذي صار يطبع أفعاله، لأنّ الإيمان الحقيقيّ ما أن يستقر في ضمير المسلم حتّى يتحوّل إلى سلوكٍ وعملٍ كما كان حال المسلمين الأوائل.

هذه التّربية تحتاج إلى منهجٍ تستضيء بهيرتبط بقضيّةٍ أساسيّة هي ضرورة تجديد فهمنا للدّين بثوابته ومتغيّراته، والخوض في مثل هذه القضيّة يقودنا إلى الحديث عن خصائص الشّريعة الإسلاميّة الصّالحة لكلّ زمانٍ ومكانٍ والّتي جاءت للبشريّة قاطبة، فهي شريعة مرنة قادرة على مسايرة التّغيرات والتحوّلات المستمرّة الّتي تشكّل قانوناً للحياة وقاعدةً لها، وبهذا المعنى يؤكّد التّصور الإسلاميّ بأنّ هذه التقلّبات إنّما هي من مشيئة الله وقدره، والمسلمون عندما أدركوا هذه الحقيقة الإيمانيّة بنوا حضارة لم يسبق لها مثيل وعرفوا قواعد المنهج العلميّ السّليم كما تجلىّ ذلك واضحا عند ابن الهيثم(965-1039) في استخدامه لمنهج الاستقراء في تصحيح وتفسير عملية الإبصار مستعملاً لفظ" الاعتبار"، وهو أيضاً ما قام به جابر بن حيان في الكيمياء، وما فعله الأصوليون والمحدّثون والمؤرّخون في تمييز صحيح القول من فاسده في الأحاديث النّبوية والأخبار والوقائع وذلك باستنباطهم من النّصوص واستنطاقهم لها.

لقد انبتت الحضارة الأوروبّية على أنقاض حضارة المسلمين وفي عصرها الذّهبي كانت تقيس نفسها بالقياس إليها وتأخذ عنها، و لكنّ الغرب لم يأخذ من علومها إلاّ المادّي منها مهملا الجانب الإيمانيّ الّذي يوجّهه نحو الله، الأمر الّذي جعل العلم المعاصر يكتسي هذا الطّابع متجاهلاًكلّ قيمة للجانب الرّوحي الّذي لا غنى عنه للحياة الإنسانيّة، سلوك دفع بعض الفلاسفة أمثال برتراندرسل في كتابه: **هل للإنسان مستقبل؟** إلى المناداة بضرورة وضع حدّ لما يجريه العلماء في مخابرهم والتّقنيون في معاملهم نظراً للويلات الّتي تسفر عنها نتائج أبحاثهم، والّتي

تنعكس لسُوء استخدامها سلباً على البشرية جمعاء، وكما يقول رجاءغارودي Garaudy، فإنّ كلّ أشكال التقدّم الرّائع للعلم والتّقنية راحت تُستخدم في الغالب في تدمير ما هو إنسانيّ أكثر ممّا تُستخدم في ازدهاره غير آخذٍ في الحسبان أيّ تأمّلٍ حول معنى الحياة.

عالمُ اتّخذ فيه مفهوم السّعادة مفهوماً كمّياً لا هدف له سوى الاستهلاك بشكلٍ متزايدٍ و متسارعٍ لأيّ شيء إلى درجة أنّ أكثر التّجارة إثماراً هي السّلاح والمخدّرات والجنس، وتُكتسب فيه الثّروات بواسطة المضاربة الماليّة أكثر ممّا هو بالعمل المنتج للسّلع والخدمات متسبّبة في انحدار الفنّ إلى مجرّد تسليةٍ لنسيان الواقع والمعنى، إلى جانب ذلك الولع بالجديد ولو كان عبثياً والفُرجة من أجل البلادة وغياب الوعي، وهو ما يتجلّى أيضا في انتشار الأصُوليات والغيبيات وقراءة الطّالع وجماعات البدع الدّينية وتفاقم القوميات القديمة، مؤدّية بذلك إلى تفكّك النّسيج الاجتماعيّ إلى وحداتٍ متضائلةٍ وغير قادرةٍ على الحياة[18].

في خضّم كلّ ذلك فإنّ الإنسان الّذي كان يظنّ أنّه سيّد مصيره وكوكبه، هو نفسه الّذي راح يكتشف أسرار الذرّة ويُصنّع الأسلحة النّووية الّتي تراكمت في شكل ترساناتٍ تكفي للقضاء على كافّة صور الحياة على وجه البسيطة في لحظاتٍ، وهو التّهديد الّذي أثار الشّعور الجدّي بالاقتراب من الموت في أيّ لحظةٍ وفي جميع أرجاء العالم، ولم يعد الموت حداً فاصلاً يفصل بين عالمين إنّما تحوّل إلى ثمرةٍ مباشرةٍ لعمل الإنسان.

والمعنى أنّه كلّمت تقدّمت العقلنة حصلت خيبة العالم(ledésenchantement dumonde) وهو المصطلح الّذي يستعيره ماكسفيبر MaxWeber(1864-1920) من الشّاعر فريدريكشيلر Schiller(1759-

[18]– رجاء غارودي، **كيف نصنع المستقبل؟** ترجمة: أنور مغيث، منى طلبة، (القاهرة: دار الشروق، 2002)، ط 3، ص133.

1805)، هذا العالم الذّي أصبح جافّا كئيباً وبارداً حيث أزالت التّكنولوجية سحره وجاذبيّته وشاعريته أيضاً.

إنّ هذه الحضارة الّتي طالما تغنّت بمبادئ عصر التّنوير وفلسفتها الإنسيّة(Humanisme) منذ عصر النّهضة لم تستطع أن تحُول دون بُروز الفاشية والنازيّة والحروب الاستعماريّة، فداست كرامة الإنسان باسم حقوق الإنسان منحرفةً بذلك عن الدّيكارتيةوالكانطيّة باعتبار أنّ هذه الأخيرة تمثّل القطيعة الإبستيمولوجيّة الثّانية، محوّلة تفوّقها المعرفي إلى هيمنةٍ سلطويّةٍ واستغلاليّةٍ، متشدّقةً في الآن عينه بشعارات العلمانيّة والرّهبنة وغيرها ممّا هو غريب عن ثقافتنا.

وعلى النّقيض ممّا تقدّم، فإنّه في واقعنا الإسلاميّ لا مجال لفصل لعلوم الدّين عن علوم الدّنيا ومن الخطأ الاعتقاد بأنّ العلمانيّة هي المخرج له من التدهور الّذي يعيشه بل والانحطاط الّذي استغرق فيه، لأنّ الإسلام دينٌ ودنيا والجانبان متكاملان لا مجال للفصل بينهما، هذه الشّريعة جمعت في خصائصها بين الثّابت والمتغّير أي بين الغاية والهدف والوسيلة والمنهج، فالثّابت هو ما ينبغي أن يخلد ويظلّ من أُصولٍ وكلّياتٍ تُعدّ أساسيّاتٍ غير قابلةٍ للتّغيير مهما اختلف الزّمان أو المكان وهي الجانب التّأصيلي، والثّاني هو ما ينبغي أن يتطوّر من أساليب وفروع وجزئيات[19]، فتكون الحركة داخل إطارٍ ثابتٍ حوْل محورٍ ثابتٍ و يظلّ التغيّر في ظواهر الحياة وأشكال الأوضاع محكوماً بالمقوّمات والقيم الثّابتة لهذا التصوّر[20].

---

[19]- أحمد فؤاد باشا، نسق إسلامي لمناهج البحث العلمي- تحديد الثوابت والمتغيرات- في: **مجلة منبر الحوار**، (بيروت: دار الكوثر،1990)، العدد17، ص14.

[20]- سيد قطب، **خصائص التصوّر الإسلامي ومقوّماته**، بيروت،دار الشّروق،1980، ط7، ص85.

لهذا كان الاجتهاد من ركائز الحضارة الإسلاميّة، لأنّ الوقائع متجدّدة والأمور متطوّرة والعادات متغيّرة بتغيّر الظّروف والأزمان والبقاع ولابدّ من تنظيم شؤون الحياة، وحده الشّرع الإسلاميّ قادرٌ على مجاراة ذلك.

هذه المسألة هي لدليلٌ قاطعٌ وقويّ على قابليّة أحكام هذا الدّين لمواجهة كلّ التّغيرات والاختلافات والوقائع، شريطة أن تتمّ هذه العملية في ظلّ الأصول الثّابتة والأحكام الكلّية[21]، لأنّ القيم الإسلاميّة هي معايير مستمدّة من الوحي، أمّا الخُطط والبرامج الّتي تنطلق منها فهي من معارف العقل وكسب الإنسان[22]، وفي إطارٍ من الالتزام بنصوص القرآن والسّنة الّتي تشكّل ثوابت هذه الشّريعة. ويظهر عمل العقل في هذا الإطار في مجالين هامّين:

- الأوّل: معرفة المقاصد والأهداف من جملة النّصوص الشرعيّة.

- الثّاني: استنباط واستخراج أحكام الوقائع المُستجدّة مما لم يرد بذاتها نصّ صريح، لهذا كان الاجتهاد حركة علميّة بنّاءة في شريعتنا السّمحة، ومن خلاله ندرك سرّ إتيان النّصوص القرآنيّة والنّبوية بالقواعد الكلّية، ممّا يجعلها حيّة ومرنة وقابلة لتغطية حاجات النّاس في مختلف البقاع[23].

من هذا المنطلق كان للعلماء وأهل الذّكر تلك المنزلة الرّفيعة الّتي اختصّهم النّص القرآنيّ بها في قوله تعالى: ((يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم)) – النّساء59.

إنّ في شريعتنا ثوابت فكريّة إيمانيّة يمكن إجمالها فيما يلي:

---

[21]– نادية شريف العمري، **الإجتهاد في الإسلام، أصوله، أحكامه، آفاقه**، (بيروت: مؤسّسة الرّسالة،1985)، ط3، ص197.

[22]– عمر عبيد حسنة، **قوة الثقافة..لا ثقافة القوة**،بيروت: المكتب الإسلامي، 2004، ص34.

[23]– نادية شريف العمري، **اجتهاد الرّسول– صلى الله عليه وسلم–** (بيروت: مؤسّسة الرّسالة، 1987)، ط4، ص366.

- عقيدة التّوحيد باعتبارها أولى المسلّمات الّتي طالبنا لله بها في أوّل ما نزل من القرآن الكريم، فهو الحقّ المطلق ومصدر كلّ الحقائق التي أمرنا بالبّحث عنها واستقرائها، والباحث المؤمن يقرّ بأنّ العلم الظّاهر دنيويّ بعلاقاته مع الأشياء وتعبّدي في نفس الوقت لصلته بالله الواحد، ومعنى هذا أن يخلص في بحثه لله تعالى فيتكامل الفكر مع العمل.

- الإيمان بوحدانيته تعالى يتضمّن كونه الخالق الحكيم الّذي أوجد الكون بنظامه واتّساقه وقوانينه، حيث يقول تعالى: ((إنّا خلقنا كلّ شيء بقدر))- القمر 49- فالتّصور الإيمانيّ ينقذ العلماء من التخبّط والتّيه بلا دليل ليقينهم أنّه تعالى هو مصدر الوجود وأنّ الكون بما فيه من قوانين مستمدّ من إرادته[24].

- لابدّ من طلب العلم لأنّه فريضة ولا مجال لحصر النّصوص الشرعيّة آلتي تأمر بالمعروف وتحثّ على ذلك، لأنّ المسلمين بحاجةٍ إلى كلّ العلوم وفي جميع التخصّصات، وذلك بما يعُود بالمنفعة العامّة على المجتمع الإسلاميّ وبما يتوافق وتعاليم الشّريعة من محاربة التعصّب والتّنبؤ العشوائي والّتنجيم وغيرها من معوّقات البّحث العلميّ، وفي ذات الوقت أن يعي الباحث بأنّ تصوّره عن الكون ليس هو الكون ذاته، وبالتّالي فمعرفته نسبيّة وجزئيّة وذاتيّة في آنٍ معاً لقوله تعالى:((وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا)) – الإسراء 85- [25].

وفي هذا الّسياق ينبغي التّنبيه إلى الصّراع المفتعل حول إشكالية الجسد الّتي تعمل التّربية الخُلقيّة في العولمة على بثّها والدّعاية لها باعتبارها تستهدف تحقيق الفرد لمتعته واستمتاعه مع غيره في هذه الدنيا فقط من دون مُخلّفاتٍ أو تبعاتٍ، محاولةً تسريب ثقافةٍ خطيرةٍ تسيطر على الإنسان وتُصيّره عبداً للتّكنولوجيا ولجشع الصّناعات الجينيّة، وهو ما يعكسه بشكلٍ جليّ مجال

[24]– أحمد فؤاد باشا، المقال السابق، ص ص(15 -17).

[25]– المرجع السابق، ص ص(19-21).

البيوإيثيقا(Bioéthique)، فحبوب منع الحمل والغشاء الواقي وموانع الحمل عموماً إنّما هي تأكيدٌ لانتصار على الذّات وكأنّها تحرّر الإنسان من كارثةٍ ميتافيزيقيّةٍ عندما أتاحت له الفصل بين الجنس والإنجاب وحرّرته من خلال ذلك من حتميّة التّناسل الحيواني، وهو ما يسقط على الهندسة الوراثية وظاهرة الأمّهات الحاملات بالنّيابة(les mères porteuses) وتجميد النّطفة والبويضة، وتحديد النّسل(Eugénisme)والموت الرّحيم(Euthanasie)، وكذلك الاستنساخ العلاجيّ. مثل هذه الأساليب تحاول العولمة تعميمها على العالم حتّى تتلاشى الخصوصيّة وتُختزل كلّ الثّقافات في الثّقافة الغربيّة العلمانيّة الموحّدة.

هذا والمقصود بالمتغيّرات كما أسلفنا هو الأساليب والمناهج الّتي تكُون قابلة للتّغيير والتطوير، لارتباطها بمكتشفات الإنسان الّذي لا يتوقّف عن البّحث، فأسلوبه عقلي تجريبيّ في آن واحد وتتكامل فيه الحواس والعقل والإرادة والبصيرة، والأجهزة الّتي يستعملها ويطوّرها ليست سوى تعزيزاً لقدراته وإمكاناته وهي من صُنع ملكاته، وهو يستخدم خطوات المنهج التّجريبي من ملاحظةٍ وفرضيّةٍ وتجربةٍ كما صاغها علماؤنا المسلمون، فشريعتنا لا تحصر طلب العلم في منهجٍ معيّن بل تترك المجال مفتوحاً لأيّ علمٍ جديدٍ ولأيّ أسلوبٍ أيضاً يُحدّده الباحثون في مجال التخصّص.

بهذا، فإنّ المنهج الّذي نستخدمه في قراءة النّص الإلهيّ لابدّ أن يُستوحى ويُشتقّ من طبيعة الموضوع، فلا يبني التّشريع الإسلاميّ قيمه وأحكامه على الواقع والظّواهر المتغيّرة، بل هذا الأخير إنّما هو مادّة ووعاء لتطبيق بُنوده وأحكامه، فيكون النّص حاكماً على الواقع وليس محكوماً به. هذه الفكرة تقودنا إلى أنّ غاية التّشريع الإسلاميّ ومقصده إنّما هو الإنسان بالدّرجة الأولى وكلّ ما يتعلّق به، لأنّ الأحكام مرتبطة بمصالح العباد، وهي تحوي من قيم العدل والوفاء والصّدق

وغيرها ما يتوافق مع المثل الأخلاقيّة العليا الّتي لا ينال منها الزّمان كما ينال من الوقائع[26].

إنّ تقدّمنا الاجتماعيّ وتجديدنا الحضاريّ مرهونٌ باجتهادنا وتصحيح فهمنا لتراثنا حتّى ننسجم مع منطق العصر، فحتّى يكون لقيمنا المُطلقة حضورٌ في الواقع لابدّ أن ننسج علاقةً حضاريّةً معاصرةً تنمّ عن وعيٍ ومعرفةٍ عميقةٍ بها، لتُوظّف بشكلٍ عمليّ وفعّال، ومعنى هذا أن نؤسّس لعلاقةٍ جديدةٍ بين هذه القيم الخالدة والواقع النّسبي الّذي نعيشه والمتغيّر باستمرار.

نحن بحاجةٍ إلى إبراز المضمون الحضاريّ للإسلام باعتباره ينادي بالحرّية وينادي بالتّواصل والتّسامح والحوار بعكس ما يُروّج له الإعلام العالميّ الأمريكيّ بشكل خاصّ، لأنّ إخفاق العديد من التّجارب الّتي كانت السّبب فيما يعانيه العالم الإسلامي من مشكلاتٍ، إنّما مردّه إلى حالات الدّمج بين الأفكار والرّجال، فالفكرة الإسلاميّة مطلقة وخالدة ويستحيل أن تكون حبيسة فهمٍ إنسانيّ محدود.

الخاتمة:

يتّضح ممّا تقدّم أنّ العولمة أو الكوكبيّة استطاعت بالفعل أن تعبّر عن حالةٍ من التواصل السّريع والقويّ والتّفاعل بين شعوب العالم ممّا زاد في مساحة وعمق المشترك بين أفراده، وذلك من خلال عوامل أو منظوماتٍ ثلاثة هي: المنظومة المالية لأنّ السّوق موحّدة، ومنظومة إعلاميّة اتّصالية، ومنظومةٌ معلوماتيّة[27]، حيث ظهرت موضوعاتٌ تعبّر عن اهتمامٍ مشتركٍ بين الشّعوب في عديد المستويات مثل التلوّث البيئي والإرهاب والجرائم الإلكترونية، وهي قضايا

---

[26]- محمد محفوظ، **الفكر الإسلامي المعاصر ورهانات المستقبل**، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1999)، ط1، ص72.

[27]- برهان غليون، سمير أمين، **ثقافة العولمة وعولمة الثقافة**، (دمشق: دار الفكر المعاصر،1999)، ط1، ص ص(16-17).

عالميّة إلى درجة أنّ مفهوم المواطنة ذاته عرف تطوّراً في منحاه بحيث صرنا نتحدّث عن المواطن العالميّ.

إنّه وضعٌ لا يمكن إنكاره أو التّنصل من مواجهته، وقد بات طرحه مسألةً ملحّةً، ولكن لنعْلم أنّ وراء العولمة تقف فلسفة أطروحة التّاريخ لفوكوياما وصراع الحضارات لهنتنغتون وصراع السّيد والعبد بشكلٍ مستحدثٍ، وهي في واقع الأمر أطروحاتٌ تلغي كلّ إمكانيةٍ للحوار باعتبار أنّها تمنح العامل الاقتصاديّ الأولوية القصوى، والّذي راح يعبث بثقافة الشّعوب ويدمّرها بوحشيةٍ لا نظير لها، فهي تلفظ كل ما عداها أو تبتلعه بمقتضى ربحٍ تحدّده، ومعنى ذلك أنّ الحوار الواهم بين الثّقافات ليس غير شعارٍ أخرق ينبغي تعديله أو التّخلي عنه لصالح مشروعٍ اجتماعيّ متكاملٍ يكُون بمقدوره أن يحقق التّفاعل الإيجابيّ مع العولمة، لأنّ البحث عن هويةٍ أو محاولة الحفاظ على ما بقي منها لا معنى له داخل نسقٍ أو نظامٍ من التّخلف والتّبعية، والمقصود من ذلك أن نعمل أوّلاً على التّحرر الدّاخلي لنقف على أرضيةٍ صلبةٍ من القيم والمبادئ والقناعات لأنّ العقيدة فكرٌ وعملٌ، وأن نحسن غربلة الوافد قبل أن نفتح له ذراعينا ونتبناه لأن المعرفة حقّ لكلّ الشعوب، وحقّ الاختلاف مطلبٌ كونيّ، وذلك حتّى نتجنّب الثّقافة الاستهلاكيّة وعولمة الاغتراب على جميع الصّعد. إنّ النّقد الواعي لثقافة العولمة في جميع تجّلياتها السّلبية وحده كفيلٌ بإنقاذ مجتمعاتنا لأنها ليست بالشر المطلق، بل هي آليات واستراتيجيات معرفيّة وسياسية توظّف لأهداف مدروسةٍ.

قائمة المراجع:

1- إدوارد سعيد، **السلطة والسياسة والثقافة**، حوارات مع إدوارد سعيد، إعداد وتقديم: غاوري فسواناثان، ترجمة: نائلة قلقيلي حجازي، (بيروت: دار الآداب،2008)، ط.1

2- **العرب والعولمة**، بحوث ومناقشات، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،1997)، ط1.

3- أولريش بك، **فخ العولمة**، ترجمة: أبو العيد دودو،منشورات الجمل، 1999، ط1

4- محمد عابد الجابري،**قضايا الفكر المعاصر**،بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية،.1997

5- مالك بن نبي،**مشكلة الثقافة**، تر:عبد الصّبور شاهين، دمشق: دار الفكر،1984، ط.4

6- طه عبد الرحمان، **روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية**، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2006)، ط.1

7-برهان غليون،سميرأمين،**ثقافة العولمة وعولمة الثقافة**،دمشق: دار الفكر المعاصر،.1999

8-هربرتماركوز،**الإنسان ذو البعد الواحد**،ترجمة:جورج طرابيشي،بيروت:دار الآداب،1988

9- رجاء غارودي، **كيف نصنع المستقبل ؟** ترجمة: أنور مغيث، منى طلبة، (القاهرة: دار الشروق، 2002)، ط .3

10- سيد قطب، **خصائص التصوّر الإسلامي ومقوّماته**،بيروت:دار الشّروق، 1980، ط7.

11- نادية شريف العمري، **الاجتهاد في الإسلام، أصوله،أحكامه، آفاقه**، (بيروت: مؤسّسة الرّسالة،1985)، ط3.

12- عمر عبيد حسنة، **قوة الثقافة..لا ثقافة القوة**، (بيروت: المكتب الإسلامي، 2004).

13- نادية شريف العمري،**إجتهاد الرّسول- صلى الله عليه وسلم-** (يروت:مؤسّسة الرّسالة، 1987)، ط.4

14-محمد محفوظ، **الفكر الإسلامي المعاصر ورهانات المستقبل**، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1999)، ط1.

10- Charles Taylor. **le malaise de la modernité**.Trad : Charlotte Melançon, (Paris :Editions du Cerf,1994).

15- أحمد فؤاد باشا، نسق إسلامي لمناهج البحث العلمي- تحديد الثوابت والمتغيرات- في: **مجلة منبر الحوار**، (بيروت: دار الكوثر،1990)، العدد17، ص14